القصة الوجودية عند كافكا

ترجمة : أحمد عصام الدين

يحكى التاريخ الأدبى فيقول ان القصة القصيرةهى أقدم أشكال العمل الأدبى طرا ، بل لعلها أول ما عرف الانسان من وسيلة ينقل عن طريقها الى غيره ما يزجى به الوقت فى صحبة ممتعه يوم كان يجتمع الشمل حول نار يصطلى القوم بها ، يردون عنهم غائلة الشتاء ، أو فى حمى شجرة ، يفيئون الى ظلها ، يدفع عنهم قيظ الصيف ، وهم يتجاذبون أطراف الحديث فى سمر شيق ، فيحكى هذا قصة تنقل تجربة الحياة ، ويروى ذاك أخرى تصم بين جنبيها نادرة طريفة .

وقد جرى التطور على القصة القصيرة كما جرى على غيرها مما يضطرب فى الحياة ، فاذا هى فى درر من أدوار حياتها ، أداة يصطنعها الانسان من أجل رسم صورة من صور الحياة ، ينقل فى سياقها عقيدته التى يدين بها ، ومذهبه الذى يعتنقه .

وواحد من المذاهب التى تسربت الى العقيدة الانسانية على مدى واسع ، مذهب الوجودية ، ذلك المذهب الذى يقول بالذاتية والذاتية وحدها ، اذ هى دون الذات والعقل المعول الوحيد فى عالم تبدو فيه الأشياء وقد خلت من كل معنى ، وبدا العقل سخفا أو ضربا من السخف ، وترتب على هذا نتيجة طبيعية ، أن تعين على الانسان وقد جرد مما كان له من معتقدات وتقاليد وعادات هى تكأته فى هذه الحياة الدنيا ، تعين عليه أن يتخذ هو قراراته ، وأن يجد حقائقه التى تسلب الانسان فى رأى كيركيجارد سترته البشرية التى ألفها وألفته ما اقترن بالحياة ، تلك الحقائق التى تحطم القناع الذى ينظر المرء من خلال رحلة روحه المعذبة فى « ليل اللاشىء البهيم » .

والوجودية بما اختلف من وجوهها ، وتباين من نظراتها ، تنعكس صورتها فى القصة القصيرة ، فكل قصة قصيرة وضعها قصاص وجودى ترمز لجانب من المذهب ، وتصانح القصية على نحو يطيب للنفس أن تخلد

فترة من الزمن ، فهو يأتيها عن طريق القصـــة ـ الشـــكل الوحيد من اشكال العمل الأدبي الذي يروق لها وتطمئن الى صحبته ·

وتظل عليما عند هذه النقطة من حديثنا حقيقة لا مناص من ذكرها تلك أن القصة القصيرة الوجودية لا تنتهي أبدا النهاية التقليدية ، فهي ليست قصة قصيرة من الطراز الذي ألفه القارىء ، وانمـــا هي تشد عن القـــاعدة التي درجت عليها هذه الصـــورة الادبية ، فهي ، أي القصة الوجودية ، «رقرقة سلوك» أو «خفقة عم» أو «سحابة سقام» أو « حطام علاقة » أو ما اليها ـ انها «رحلة تتم في غير مكان» هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان القصـــة الوجودية من شأنها أن تبعث الالم في النفس الانسانية ، لا لشيء سوى أنها تعترض تجرد الحياة بل هي تجردها من أوهامها وخيالاتها وما اليهـــا من مظاهر خداعها التي تمسك على الانسان وجوده في هذه الارض ، وهو الذي كله زيف ، وكله باطل ·

ونحن اذ نرسم صورة القصة الوجودية القصيرة التي توفرت لها ملامح الشكل الادبي كلها ، فهي وحدة قائمة بذاتها ، متمايزة من غيرها ، انما اذ نفعل ذلك ، انمـــا نمهد طريق الحديث عن عالم من أعلام القصة الوجودية القصـــيرة ، فرانز كافكا ، وعن عمله في اطار المذهب الذي آمن به ·

ولد فرانز كافكا في مدينـــة براغ حاضرة تشيكوسـلوفاكيا عام ١٨٨٣ م ، حيث اتصلت حياته حتى عام ١٩٢٤ ، ولم يسعده الحظ فيرى في حياته قصـته الطويلة الكبيرة ترى النور · ومنذ ذلك الوقت أخذت أعماله العظيمة : «القلعة» و «المحاكمة» و «أمريكا» ، وقصصه القصـيرة الكثيرة أخذت تنعم بالانتشار في أنحاء العالم · والموضوعات التي يعالجها كافكا في قصصه ، طويلها وقصيرها ، هي القلق المتصل وخيبـة الامل وانعدام الوحدة الكونية ، وجلها موضوعات تلائم عصرا فيه قلق ، خاصا كان أم عاما ، له صفة الوجودية الحقة الاكيدة ·

بعد هذه الترجمة المقتضبة لحياة فرانز كافكا ، ننتقل الى الـــكلام عن الكيان الكافكي في اطار المذهب الوجودي ، في محـاولة صادقة الى بيان مدى العلاقة بين الشخص والمذهب في ضوء عمله الادبي ·

في ظل النظر الوجودي ، يغترب الانسان عن نفسه اغترابا يظل يعمق ويعمق حتى تنعدم شخصيته ، ويشكل هذا حجر الزاوية في بناء كافكا الفني ·

ففى قصته الموسومة « راكب ، الجرذل ، نراه يخرج لنا قصة « سيريالية في ذاتها » اذ كانت تشدد على التفاصيل أو التفصيلات ، «وجودية في طالبها» اذ كانت تقدم لنا عالما أصابه الجمود ، تلعب فيه الارادة الانسانية دورا صغيرا ، أو هى لا تلعب أى دور على الاطلاق ، وتشير البداية ، بداية القصة ، بما تبعث من جو جليدى ، تشير الى نصيب الفرد الذى قد يهلك لحاجته الى سلعة أساسية . انه يحتاجها ومع ذلك لا يمكنه أن يحصل عليها بالوسائل الطبيعية . فبالنسبة للراكب ، الذى يمتطى صهوة جرذله الذى هو جواده ، يصبح البائع الذى لا سبيل الى بلوغه ، فى صورة من الصور ، الها يزرع الفحم الذى يحفظ الحياة اذا أمكن صاحبها الوصول اليه .

وفى هذه القصة الغريبة التى لا يكاد يحدث فيها شىء ، والتى يبدو فيها رغم هذا كل شىء له وجود ، فى هذه القصة ، يكشف كافكا القناع عن عالم قاس تمتد فيه أكثر أشياء حظا من طابع العادية ، الى أشكال جديدة ومعان جديدة .. ومثل شخصيات كافكا الاخرى الكثيرة ، يتحتم على الراكب أن يخضع ارادته لارادة الآخرين ، فبغير قرار بائع الفحم أن يعطيه وقودا لن يبقى حيا . وفى هذا ما فيه من السخف ــ سخف عالم لا يمكن أن يأمل فى فهمه . والسخف يشتد ويعمق أكثر من ذى قبل حين لا يقابل الراكب بائع الفحم اطلاقا . فعلى نحو ما فى مؤلفه المعروف «القلعة» يعترض طريق الشخص عائق قبل وصوله الى وجهته ، فيحول دون بلوغه غايته ، يجد الراكب ملتمسه تعترض عليه زوجة التاجر ، وهى التى تتابع تبليغ المعلومات الخاطئة الى زوجها ثانية . وهكذا لايتصل الراكب بالشخص الوحيد الذى يمكنه أن يمد له يد المعونة ، وبغير المعرفة والفهم وتحقيق ذاتيته ، يصعد صاحبنا طريقه الى «موت متجمد» ، وقد أغلق على نفسه فى داخلها ، وهو يلعن قسوة الدنيا .

وفى فرانز كافكا يقدم الانسان دائما الى ساحة القضاء ، فاذا هو مذنب ، يدينه ذنب لا يدريه ، ويلقى جزاءه عقابا لم يقترف جريمة يستحقه من أجلها ، فهو الضحية البريئة لقوة ليس من يخفف علواءها حياله .

ولا يملك الا أن يندب حظه ويتحسب : « **أنا هنا ، وأكثر من هذا لا أعرف ، وابعد من هذا لها يمكننى أن أذهب . ان جرذلى لا دفة له ، وتسوقه الرياح التى تهب وتسفى فى مناطق الموت . وحتى هذه الصيحة تذهب صرخة فى واد ، واذا كان هناك فحم يحصل البعض عليه ، فان لى البرد والزمهرير** » .

وتذهب بصيرة كافكا أبعد مما تذهب بصيرة ديستيوفسكى من حيث الثبات وعدم التغير . فهى تنكر على الانسان الحرية ، وهى تنكر عليه الذعر من الاختيار ، ثم هى تنكر عليه فى النهاية أن يمكن وجود السلام .

ان «راكب الجرذ» يثور على نظام الاشياء ، ولكنه بوصفه متمردا ، اذا به « صحية أوفق » فى عالمه ، يستحيل عصـــيان راكب الجرذ الى ســـخافة ، حين يقع التعبير عنه على آذان صماء • ان راكب الجرذ ، هو فى حقيقته الصحية السخيفة ، أو صحية السخف ، انه العاصى الفاشل ، « المخبول الكونى » •

والشخصيات فى قصص كافكا بعد الذى ذكرت ، شخصيات تحظى بقدر غير ضئيل من الواقعية ، الا أنها واقعية تقل عن نصيب مثيلاتها منها عند قصاصين وجوديين آخرين مثل سيزار بافيس الايطالى • كمـــا أن المفردات التى هى تفاصيل فى القصة تكثر كثرة لا تخفى على عين تلحظ ، الا أنها تزيد فى حملتها عن نصيب قصص وجوديين آخرين منها ، مثل صمويل بيكيت الايرلندى • والتفاوت فى النصيب تبـــاين فى التناول الفنى ، يشكل على نحو من الانحاء مدى الفرق فى النظر الى الاشياء ، كان هذا النظر فى ظل المذهب الوجودى أو غيره ••

هذا هو فرانز كافكا ، وهذه هى نظرته الوجودية الى الدنيـــا وما يضطرب فيها من بشر ، وما تحفل به من احداث ، وتزخر به من أوضاع تنتظمها الحياة الانسانية •

وأسلم القـارىء بعد هذا الى قصة « راكب الجرذ » التى تناولت الحديث عنهـــا بسبيل التمثيل للقصة الوجودية عند كافكا ، موضوع مقالى •

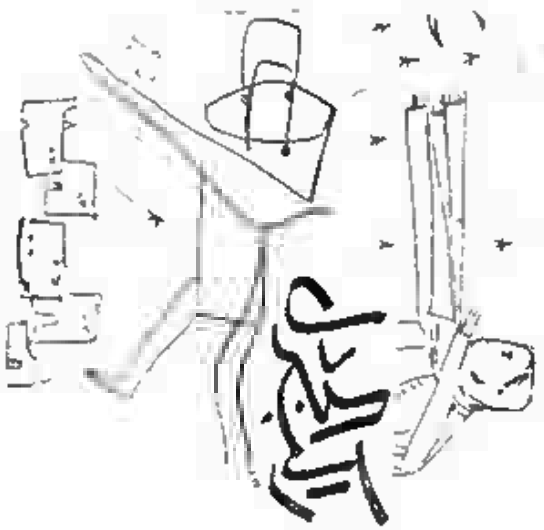

نفد الفحم جميعه ، الجرذ فارغ ، الجاروف لا فائدة منـــه ، الموقد يبعث البرد ، العرفة تتجمد ، الأوراق خارج النافذة ، متصلبة يعطيها التراب الندر ، الســـماء درع قضى فى وجه كل من يتطلع اليها فى طلب العون منها • انه يتحتم على الحصـــول على فحم ، انى لا يمكننى أن أتجمد حتى الموت •• الى ورائى يقبع الموقد الذى توقف نبضـه بالشعقة ، وأمامى السماء التى لا تنم عن شعقة تضطرب بين جنبيها ، ومن ثم فلا بد أن أخرج راكبا بين الاثنين ، وفى

رحلتي أسعى الى العول من جانب بائع الفحم . ولكنه قد عدا أصما فهو لايسمع الى المناشت العادية . انى لا بد أن أقيم له الدليل فى صورة لا تقبل التفنيد انى لم يعد فى حوزتى قطعة فحم واحدة ، وأنه أصبح يعنى لى ما تعنيه الشمس ذاتها فى كبد السماء . لا بد لى أن أتقدم اليه مثل شـــحاذ يصر ، وقد أخذت حشرجة الموت تتردد فى حلقه ، يصر على الموت على عتبة الباب ،والذى يقررها هى الشعب الأعظم على أســاس من هذا أن يعطيه ثمالة براد القهـــوة . على هذا النسق ، لا بد أن يلقى المرء بائع الفحم، وقد امتلأ قلبه (قلب بائع الفحم) حنقا وغيظا ، ولمه يعترف بالوصية : « انك لن تقتل » ، لا بد أن يلقى ملء جاروف من الفحم فى جردلى .

ان طريقة وصـــولى يجب أن تقرر الأمر ، ومن ثم فانا اركب جردلى وانطلق ان يداى وقد استقر بى المقام على الجردل فى هيئة مقعد لى ، تمسك يده ، أبسط أنواع اللجام ، ثم أنا أدفع نفسى قدما هابطا الدرج ، ولكنى لا أكاد يستقر بى المقام فى أسفل الدار ،حتى يصعد جردلى فى صورة رائعة ، فى صورة رائعة . وان الجبال التى تجلس القرفصاء فى تواضع على الأرض لا تنهض فى هيئـة أو فى حظا من الهيبـــة ، وهى تهز قوامها تحت لفحات عصى حداتهـــا . ونمضى خلال الشـــوارع التى تجمدت صفحتها ، نخطو خطوا حثيثا منتظما ، وبينما نحن نمضى يرتفع مقـــامى فى أغلب الأحيان ، فاذا هو يعلو بما يوازى ارتفاع الطابق الأول فى منزل ، ومـــا أغرق أبدا ، فأبلغ درجة من الانخفاض أحادى عندهـــا أبواب المنازل . وفى النهاية أطفو على ارتفاع غير طبيعى فوق سرداب البـــائع الذى تغطيه الأقبية ، ذلك البائع الذى أراه أسفل منى الى بعيد يجثم على منضـــدته ، حيث يمضى فى الكتابة ، وكان قد فتح الباب حتى يجد متنفسا تخرج منه الحرارة الزائدة .

فاصرخ . « اى بائع الفحم ! » وتدوى صرختى فى صوت احترق فغـدا أجوف بعمـل الجليـــد ، وخفت فيما أثرت من سحابة تسجت رقعتهـا أنفاسى . « **من فضلك يا بائع الفحم ، اعطنى قليلا من الفحم ، ان جردل خفيف الى درجة اننى أستطيع ركوبه . نعطف ، وحين يتيسر لى ، سوف أدفع لك .** »

ويضع بائع الفحم يده الى أذنه : «**هل أسمع حقا ؟** » يلقى بالسؤال عبر كتفه الى زوجته . « أو أسمع حقا ؟ زبون» .

تقول الزوجة : « **انى لا أسمع شيئا** » وأنفاسها تشوق وتزفر وهى تعمل ابرتها فى لفة الخيط التى معهـــا ، وقد تدثر ظهرها بالدفء الجميل الذى تشـــمه الحرارة .

فاصرخ : «**أوه . نعم يجب أن تسمع انى زبون قديم ، مخلص امين ، الا انى أعدم الآن القدرة على الدفع** » .

فيقول بائع الفحم : « **زوجتى . ثمة شخص هناك . لا بد . ان أذناى لايمكن أن تكونا قد خدعتانى الى هذا الحد . لا بد أنه عميل قديم ، قديم جدا ، حتى انه يســـتطيع أن يحركنى ، بل يثير عاطفتى الى هذا المدى العميق** » .

فتقول الزوجة : « **ماذا يعنيك ايهـــا الرجل** » ، تقولهـــا وقـــد توقفت عن العمل لحظة تضغط شغل ابرتهـــا على صدرها ، « **ليس هناك شـــخص ما ، فالشارع خلا من المارة ، وكل عملائنـــا**

قد حصلوا على حاجتهم من فحمنا ، انه ليمكن لك ان تغلق الحانوت أياما عديدة، ونستريح شيئا » .

فاصرخ : «ولكنني اجلس هنا فى عال فوق جردل » . وتعرورق عيناى بدموع تتجمد فهى لاحظ لها من احساس .

فأعاود الكلام : **« من فضلك ، انظر الى أعلى ، هنا ، مرة واحدة فقط ،فسوف ترانى فى الحال ، آتوسل اليك . ملء جاروف واحد فقط . واذا اعطيتنى أكثر فانك سوف تسعدنى الى درجة أنى لن اعرف . ماذا أفعل . ان كل الزبائن الآخرين قد نالوا قسطهم من زادك ، أوه لو أنى استطعت سماع الفحم تخبط قطعة واحدة منه الأخرى داخل اجردل ! »** .

يقول بائع الفحم : **« انى قادم ! »** ويأخذ يتسلق على رجليه القصيرتين درجات السرداب ، الا أن زوجته قد وقفت من قبل الى جانبه ، فاذا هى ترده الى وراء بذراعها وهى تقول : **« عليك أن تبقى هنا . واذا وجدتك تصر على أوهامك وأخيلتك ، فسأذهب بنفسى . اذكر نوبة السعال السيئة التى لعبت بك الليل طوله . ولكن من أجل قطعة من العمل ، حتى ولو كانت عملية تخيلتها فى رأسك ، أراك مستعدا أن تنسى زوجتك وأطفالك وتضحى برئتيك . سأذهب أنا »** .

ـ «اذن ، فتأكدى أن تخبريه بجميع أنواع الفحم التى لدينا خزين منها ، وسوف أرفع عقيدتى معلنا الأسعار فى آثرك » .

فتقول الزوجة : **« حسنا »** ، وتعتلى الدرج الى الشارع . وطبيعى أن تراني على الفور . فاصرخ : « أى زوجة بائع الفحم ، تخياتى المتواضعة . ملء جاروف واحد من الفحم . هنا فى جردلى وسأحمله الى البيت بنفسى ، ملء جاروف واحد من أسوأ أنواع الفحم لديكم ، وسأدفع القيمة كلها طبعا ، الا أنى لن أفعل الآن للتو . « كم كان لهذه العبارة « ليس على الفور » من وقع مثل صوت دقات الناقوس يعلن وفاة راحل عن الدنيا ، وكم بدت العبارة محيرة وقد أخذت تختلط مع أنغام المساء الصادرة من برج الكنيسة التى تقوم قريبا من المكان !

يصيح البائع : « حسنا ، ماذا يريد ؟ » فترد زوجته عليه الصيحة قائلة : **«لاشيء»** ، وتمضى بعدها فتقول : **« لا شيء هنا . انى لا أرى شيئا . انى لا أسمع شيئا . وانما تدق الساعة السادسة . ويجب أن تغلق الحانوت . ان البرد يثير الذعر فى النفوس .وسوف يكون لدينا الكثير نعمله فى الغد ثانية»** .

انها لا ترى شيئا ، ولا تسمع شيئا ، ولكنها سواء ترحى خيوط مرولتها وتلوح بها تبعد عن المكان . وتنجح لسوء الحظ . فان جردلى له خصائل الجواد الطيب كلها الا القدرة على المقاومة، فهذه لا تتوفر له . انه خفيف للغاية . ان مبدعة امرأة تستطيع أن تدفعه طائرا فى الهواء .

فاصيح فى وجهها : **« أيتها المرأة الخبيثة ! »** ، بينما تلوح هى ، وقد استدارت تدخل سردابها يتورعها الشعور بالاردراء والطمأنينة ، تلوح بمبدعها فى الهواء . «أيتها المرأة الخبيثة! **لقد رجوت ملء جاروف من أسوأ أنواع الفحم ، وأبيتيه على »** . وبهذه الصيحة اتخذ طريقى صعدا الى مناطق الجبال الجليدية ، وأفقد حياتى الى الأبد .